القَصَصُ الوارِدُ في السورة وعلاقتُه بمَقْصدِها العام (سورةُ الكهف نموذجًا)

*محمد رضا حسن الحوري، منصور محمود حسن أبو زينة**

ملخص

هدفت هذه الدّراسة إلى الكشف عن العلاقة بين القصّة والمقصد العام للسّورة التّي وردت فيها، وعن أهمّية ذلك في تماسك أجزاء السورة الواحدة، باعتبار أنّ لكلّ سورة شخصيّة مميّزة مستقلة عن غيرها؛ لذا تناولت الحديث عن مفهوم القصّة القرآنية وأهمّ أهدافها وخصائصها، ومفهوم المقصد العام للسورة، وبيّنت مسالك الكشف عن المقصد العام للسورة، ثمّ تناولت في الجانب التطبيقي القصص الوارد في سورة الكهف مبينةً مقصد كلّ قصّة وعلاقته بالمقصد العام للسّورة. وخلصت الدّراسة إلى عِدَّة نتائج، منها أنّ القصّة في القرآن إنّما ترد في السورة لتؤدّي وظيفة فيها وأنّ ما يُعْرَضُ من حلقاتها يأتي مناسبًا للمقصد العام للسورة، ومنها أنّ لكلّ سورة في القرآن شخصيّة تميّزها عن غيرها من السّور، ولها مقصد عام ترجع إليه جميع المعاني الواردة فيها، ومنها أنَّ لكل قصة من قصص سورة الكهف مقصدًا خاصًّا، وغرضًا مُحَدَّدًا، وأنَّ هذا المقصد جاء منسجمًا تمامًا مع مقصد السورة العامِّ، ومؤكدًا له.

الكلمات الدالة: مقاصد السور، قصص القرآن، علم المناسبة، سورة الكهف.

المقدمة

الحمد لله الذّي نَزَّلَ الفرقانَ على عبده ليكون للعالمين نذيرا، والصلاةُ والسلامُ على مَنْ بُعِثَ داعِيًا إلى الله وسراجًا منيرًا، وعلى آلِه وأصحابِه الموعودينَ من ربِّهم بأنَّ لهم فضلًا كبيرًا.

أما بعدُ، فإنَّ القصص القرآني يُعَدُّ واحدًا من أبرز المحاور التّي اهتمّ القرآن ببيانها؛ إذ شغل مساحة كبيرة منه تربو على الرُّبُع، ذلك أنّ القصّة القرآنيَّة جاءت لتقرّر أهدافا كثيرة، وأغراضا عديدة، ولا يخفى أن القصّة من طرق التعبير في القرآن، وأنها تتلاقَى مع غيرها من أنماط التّعبير الأخرى لتقرّر مقصِدَ القرآن في تحقيق هداية النّاس، وتوجيههم إلى الطّريق المستقيم.

والقرآن الكريم نسيج كلّي متماسك يشدّ بعضه بعضًا لتحقيق مقاصد كلّيّة، هي جماع التّوجيهات الإلهيّة؛ لبسط معالم الشّريعة الاسلاميّة لبني البشر فيما يعود عليهم بالسعادة في الدّارين، لذا جاءت معالمه مبسوطة في ثنايا الآيات والسّور الكريمة، فنجد السّورة الواحدة تمتزج آياتها ومقاطعها وفواصلها وقضاياها المتعدّدة لتكوّن نسيجًا منفردًا يمثّل الوحدة الموضوعيّة لها؛ ولمّا كانت القصّة جزءًا من تلكم العناصر فقد امتزجت بموضوعات السّورة بما يخدم ذلك النّسيج الواحد الذّي لا يمكن الفصل بين عناصره لقوّة سبكه وإحكام سرده، فالقصّة القرآنيّة جاءت لتقرير أهداف تربويّة وإرشادات وتوجيهات عديدة استهوت الباحثين الدّارسين لكتاب الله العزيز فسخّروا أقلامهم لبيانها كلٌّ من وجهة نظره.

وفي محاولة لاستكشاف سرّ من أسرار القصّة في القرآن من النّاحية المقاصديّة أرادَتْ هذه الدراسةُ أن تتّخذ من الوحدة الموضوعيّة للسّورة منطلقًا لبيان التّرابط المعنوي بين عناصر السّورة، وكشف العلائق والوشائجِ بين موضوعاتها وأهداف القصّة الواردةِ فيها، وربطِ ذلك كلِّه بالمقصد العام للسّورة.

أهمية الدراسة

تظهر أهمية الدراسة من خلال التعرض لبيان مقصد من مقاصد القرآن الهدائية؛ فقد أنزل القرآن لهداية الناس وتوجيههم إلى الصّراط المستقيم، ومعرفة ذلك لا تتحقق إلا بالنّظر والتأمل في جزء من أجزائه المكوّنة له، ألا وهو السورةُ منه؛ فالتّالي لآي الذّكر الحكيم ينظر إلى تفاصيل السورة ثمّ يهتدي إلى المقصود منها، فتحصل له الهداية التي من أجلها أُنْزِلَ القرآن: {إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم} والقصة القرآنية شغلت مساحة معتبرة في القرآن وتوزّعت في ثنايا سوره، وقد

* كلية الشريعة، جامعة اليرموك، الأردن. تاريخ استلام البحث 2015/12/29، وتاريخ قبوله 2016/2/2.

© 2017 عمادة البحث العلمي وضمان الجودة/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

جيء بها لتحقيق أغراض هدائيّة وتربويّة كثيرة تسهم في بناء المجتمع وتوجيه الأمّة الاسلاميّة إلى القيم المثلى.

مشكلة الدراسة

تتمثّل إشكاليّة البحث في بيان نوع من أنواع العلائق في القرآن الكريم، تلكم هي العلاقة بين القصّة والسّورة التّي وردت فيها من الجانب المقاصدي، الذي يمكن التّعبير عنه عن طريق السؤال الرئيس الآتي: هل لورود القصّة في القرآن الكريم وتوزّعها على بعض سوره علاقة بالمقصد العام لكلّ سورة؟

أهداف الدّراسة: تتمثل أهداف الدراسة فيما يأتي:

1. إبراز أهمّيّة النّظر إلى الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم.
2. استكشاف علاقة مقاصد السّور بالقصّة من خلال تتبّع معانيها والرّبط بينها وبين مقصدها العام.
3. الإسهام في إبراز أهميّة دراسة القصص القرآني في جانب من جوانبه، وهو المتعلّق بالمقصد، بوصفِه سِرًّا من أسرارِ البيانِ القرآني.

منهج البحث: اتبعت هذه الدراسة المنهجين الآتيين:

المنهج التّحليلي: وهو المنهج الأساس الغالب في الدّراسة؛ إذ يتعلَّقُ بتحليل النّصوص وتفكيكها وإمعانِ النّظر فيها، من أجل الوصولِ إلى الفهم السّليم.

المنهج الاستنباطي: ويتمثَّلُ في استخلاصِ مقصد القصة، ثم مقصد السورة، ثم بيان العلاقة بين القصص ومقاصد السّور.

خطّة البحث: جاءت هذه الدراسة في مقدّمة، وتمهيد، ومبحَثَيْن، وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة.

التمهيد: مقاصد القصّة القرآنيّة.

المبحث الأول: المقصد العام للسورة ومسالكُ الكشف عنه وفيه ثلاثةُ مطالب:

المطلب الأول: مفهومُ المقصد العام للسورة

المطلب الثاني: بيانُ اختصاص السّورة بالمَقْصِدِ الواحد

المطلب الثّالث: مسالكُ الكشف عن المقصد العام للسورة

المبحث الثاني: علاقة القَصَص الوارد في سورة الكهف بمقصدها العام وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأوّل: بين يدي السّورة .

المطلب الثّاني: المقصد العام للسّورة.

المطلب الثالث: العلاقة بينَ قَصَصِ السورة ومقصدِها العام.

الفرع الأول: قصّة أصحاب الكهف.

الفرع الثاني: قصّة صاحب الجنّتين.

الفرع الثالث: قصة آدم وإبليس.

الفرع الرابع: قصة موسى والخضر.

الفرع الخامس: قصّة ذي القرنين.

الخاتمة.

واللهُ سبحانَه هو المسؤولُ أنْ يكتُبَ لهذا البحث النفعَ في الدنيا، والقبولَ في الآخرة، وأنْ يجعلَه خالِصًا لوجهِه الكريم، وأنْ يغفِرَ لنا تقصيرَنا فيه، وأنْ يُؤْتِيَنا سُؤْلَنا، ويَهْدِيَنا سُبُلَنا، {واللهُ يقولُ الحقَّ وهو يهدي السبيل}.

التمهيد: مقاصِدُ القصّة القرآنيّة

ورد في القرآن الكريم ثلاث آيات تذكر الأهداف والمقاصد والحكم التّي لأجلها قصّ الله القصص في كتابه (ينظر: سيّد قطب، التّصوير الفني في القرآن الكريم، ص144)، ومن خلال هذه الآيات الثلاث يمكن استنباطُ أهمِّ مقاصد القَصصِ القرآني، وهي على النحو الآتي:

1- الدعوةُ إلى التفكر، ونَصَّ على هذا المقصد قولُه تعالى: (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [الأعراف: 176]، فالأمثال لها وقعها في النّفوس عند المقارنة بين الأحوال المتشابهة فإنّ" للأمثال واستحضار النّظائر شأنًا عظيمًا في اهتداء النفوس بها، وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذّاهلة أو المتغافلة، لما في التّنظير بالقصّة المخصوصة من تذكّر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التّذكير المجرّد عن التّنظير بالشّيء المحسوس (ابن عاشور التحرير والتنوير، ج9، ص179).

2- تحقُّقُ العبرة والاتعاظ، ويؤخذ هذا المقصدُ من قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [يوسف: 111]، فمِنْ خلال هذا القصص القرآني يتنبّه المؤمن من غفلته ويأخذ منها ما يرشده إلى الخير والرشد والاستقامة في سبيل الحقّ، "فما ذكرت قصّة إلا إذا كان معها عِبْرَةٌ أو عِبَرٌ، وفيها المَثُلاتُ لمن عَصَوْا وتركُوا أمر ربهم" (أبو زهرة، المعجزة الكبرى ص187).

3- تثبيتُ فؤاد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ويُستفادُ هذا المقصدُ من قوله تعالى: (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) [هود 120]. بعد أن ذكر الله تعالى ما كان من حال الأنبياء مع أقوامهم كنوح وإبراهيم ولوط وهود وصالح

وشعيب– عليهم السلام– وما لاقوه من عنت وعناد وصدّ من أقوامهم في سبيل الدّعوة إلى التّوحيد، عقّب بالتّنبيه إلى الغاية من سرد هذه الأحداث والمواقف، وهي تثبيتُ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ومواساته ومساندته في مهمّة التّبليغ الّتي هي امتداد لرسالة الأنبياء من قبله والصّبر عليها وتحمّل أعبائها.

المبحث الأول

المَقْصِدُ العامُّ للسورة ومسالِكُ الكشفِ عنه

المطلب الأوّل: مفهومُ المقصدِ العامِّ للسورة

يرجع أصل كلمة مقصد إلى (ق ص د) وهي بمعنى إتيان الشّيء وأمّه (ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص79)، وأصلها أيضًا كما قال ابن جني الاعتزام والتوجه والنهودُ والنهوضُ نحو الشّيء على اعتدال كان ذلك أَو جَوْر (ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص353) والقَصْدُ استقامةُ الطَّريقةِ (الفراهيدي الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج5، 54)، وقوله تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) [النحل: 9] أَي على الله تَبْيينُ الطّريق المستقيم والدّعاءُ إِليه بالحجج والبراهين الواضحة، وهو بمعنى الاعتماد، والقَصْدُ إِتيان الشّيء تقول قصَدْتُه وقصدْتُ له وقصدْتُ إِليه بمعنى (لسان العرب، ج3، ص353).

ومن هذا العرضِ اللُّغَوِيِّ يمكن القولُ إنَّ معانيَ مادة (قَصَدَ) تدور حول التوّجه إلى الشّيء وإتيانه بعزم وثبات وبيّنة، وهو "العُمْدَةُ الذي يتّجه إليه الكلامُ ويرجع إليه" (الربيعة، علم مقاصد السور، ص7).

وبناءً على المفهومِ اللُّغَوِيِّ للمقصد، يُمْكِنُنا بيانُ مفهومِ (مقصِدِ السورة)، و(عِلم مقاصد السُّوَر)؛ فإذا كانَ (المقصِدُ) لُغَةً هو المَغْزَى الذي يتّجه إليه مرادُ المتكلّم، بحيث يعتمد على الحجج والبراهين في بيانه والإفصاح عنه، فإنَّ (مقصد السّورة) هو: "مغزى السورة الذّي ترجع إليه معاني السورة ومضمونها" (المرجع السابق). أمّا (علمُ مقاصد السور) فقد ذهبَ البقاعيُّ إلى أنه: "عِلْمٌ تُعْرَفُ منه مقاصد السور، وموضوعه آيات السور، كل سورة على حيالها، وغايته معرفة الحق من تفسير كل آية من تلك السورة، ومنفعته التبحر في علم التفسير فإنه يثمر التسهيل له والتيسير، ونوعه التفسير، ورتبته أوله، فيشتغل به قبل الشروع فيه فإنه كالمقدمة له من حيث إنه كالتعريف لأنه معرفة تفسير كل سورة إجمالًا وأقسامُه السور" (البقاعي، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، ج1، ص155).

ومن هذا يُعْلَمُ أنَّ مقصِدَ السورة موضوعُه الوقوفُ على المعاني والأغراض الأساسية التي تدور عليها السورة القرآنية الواحدة، وهو مأخوذ من "التحام موضوعات السورة القرآنية وتماسك بنائها واتساق معانيها لخدمة مقصود واحد" (رشيد الحمداوي، وحدة النسق في السورة فوائدها وطرق دراستها ع3، 1428هـ، ص4).

المطلب الثاني: بيانُ اختصاص السّورة بالمَقْصِدِ الواحد

أنزل الله تعالى القرآن مفرّقًا في مُدَدٍ شتّى، ولم ينزله دفعة واحدة، ولعلّ ذلك من الأسباب التّي تسهّل الوقوف على مقاصد السّور والإحاطة بحقائقها، "فالحكمة في تسوير القرآن سورًا تحقيق كون السورة بمجردها معجزة وآية من آيات الله والإشارة إلى أنّ كُلَّ سورةٍ نَمَطٌ مستقلٌّ؛ فسورة يوسف تترجم عن قصّته، وسورة براءة تترجم عن أحوال المنافقين وأسرارهم إلى غير ذلك" (السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص228)، وهذا لا يمنع أن يكون ضمن المقصد العام للسورة مقاصد فرعية ترجع إليه، ويُعَبِّرُ الشاطِبِيُّ عن هذه المقاصِدَ الفرعيَّة بـ (القضايا)، فيذكرُ أنَّ "الكلام المنظور فيه [أي القرآن] تارة يكون واحدًا بكل اعتبار، بمعنى أنه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت، وعليه أكثر سور المفصل، وتارة يكون متعددًا في الاعتبار، بمعنى أنه أنزل في قضايا متعددة؛ كسورة البقرة، وآل عمران، والنساء، واقرأ باسم ربك، وأشباهها" (الشاطبي، الموافقات، ج3، ص414).

وإنَّ اختصاصَ كلّ سورة باسمها وافتتاحيتها وخاتمتها وتعدّد أغراضها دليل انتظامها في سلك واحد، وهذا ما أشار إليه الزمخشري من أنّ هذا التفصيل لسور القرآن الكريم وما تحمله كلّ سورة من تلاحق الأشكال والنّظائر وملائمة بعضها لبعض، يوصل إلى معرفة ما في السورة من تلاحظ للمعاني وتجاوب للنّظم (الزمخشري ،الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج1، ص98)، وهو ما اتّضح لعبد الله دراز وأثار دهشته فصرّح بذلك قائلًا: "ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا بأن هناك تخطيطًا حقيقيًّا واضحًا ومحدَّدًا يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي ستعالجه في خطوطها الرئيسية، ثم يتبع ذلك التدرّج في عرض الموضوع بنظام لا يتداخل فيه جزء مع جزء آخر، وإنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة. وأخيرا تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة (دراز محمد عبد الله، مدخل إلى القرآن الكريم، ص119).

ويُضافُ إلى ما سبقَ بعضُ الدلائل التي من خلالها يمكن التأكيد على أن لكل سورة مقصدًا خاصًّا، ومن هذه الدلائل ما يأتي:

أوّلًا: في وجه تسميتها بالسورة جاء في تعريف العلماء للسورة بأنّها: "طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع

ومقطع" (الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص350)، فهذا رسم لحدودها وبيان لما هو داخل ضمنها من الآيات الكريمة، وبذلك تكون السّورة "محيطةً بآياتها مستقلّةً عن غيرها من السّور ومتميّزة عنها بما تضمُّه من معانٍ وأغراض مختلفة تُجْمَعُ برباط واحد، وهو ما أشار إليه سيد قطب، خلال تقديمه لسورة المائدة، حيث بيّنَ أنّ لكلّ سورة شخصيّة مستقلّة وإنْ تقاربت الموضوعاتُ التّي تعالجها كلّ سورة، من بدئها إلى منتهاها (ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج2، ص833).

ثانيًا: ترتيب الآيات في السور أجمع العلماء على أن ترتيب الآيات في سور القرآن الكريم توقيف من الرّسول عليه الصلاة والسّلام كما نَصَّ على ذلك الزركشيُّ في (البرهان) (الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص256) وتبعه السيوطي في (الإتقان) (السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج1، ص186)؛ فالنبيّ عليه الصلاة والسّلام تلقّى الكلام الإلهيّ وحيًا وأُمر بطريق الوحي أيضًا بوضع كلّ آية في موضعها، "فلولا أنّ رابطًا يجمع بين هذه الآيات بعضها وبعض ما كان ثمة سبب يدفع إلى هذا الوضع ولا يقتضيه، بل لرُتّبت الآي كما نزلت وما كان هناك داع إلى ترتيب وتبويب" (أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن ص239).

ثالثًا: التَّحدِّي بالسّورة الواحدة تحدّى الله تعالى العرب بأن يأتوا بمثل سورة من سور القرآن الكريم، وذلك في مواضع متعددة، منها قولُه تعالى في سورة البقرة: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة: 23]؛ فالتّحدّي كان "بسورة ولم يكن بمقدار سورة من آيات القرآن لأن من جملة وجوه الإعجاز أمورًا لا تظهر خصائصها إلا بالنظر إلى كلام مستوفًى في غرض من الأغراض وإنما تنزل سور القرآن في أغراض مقصودة فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لفواتح الكلام وخواتمه بحسب الغرض، واستيفاء الغرض المسوق له الكلام" (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص337).

المطلب الثّالثُ: مسالِكُ الكَشْفِ عن المقصد العامِّ للسورة

كان للعلماء عنايةٌ بالبحثِ عن المقصِدِ العامِّ الذي ترومُه كلُّ سورةٍ من سُوَرِ القرآن الكريم، والناظرُ في كلامِهم تستبينُ له الخُطُواتُ المنهجيّة، والوسائلُ العِلْميَّة، التي من شأنِها أنْ توصِلَ المتأمِّلَ للسورة القرآنيَّة إلى الكشف عن مقصدِها العامِّ، وفيما يأتي أهمُّ هذه الخُطواتِ والوسائل:

أوّلًا: اسمُ السورة طريق لمعرفة مقصدها

اسم كلّ شيء طريق إلى معرفته، وللسورة القرآنية حظ من ذلك؛ إذ إنّ لكلّ سورة اسمًا أو أكثر يكون علمًا عليها بحيث يمكن الاهتداء إلى المحور العام لها عن طريق الربط بين اسم السورة وما جاء فيها من تفاصيل، وهو ما أَكَّدَهُ البقاعيُّ حينَ أوضح أنّ "اسمَ كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأنّ اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسمَّاهُ عنوانِهِ الدالِّ إجمالًا على تفصيل ما فيه... ومقصودُ كل سورة هادٍ إلى تناسبها" (البقاعي نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج1، ص17-19) وقد أشار إلى ذلك أيضا مصطفى مسلم (مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص42). وغنيٌّ عن البيانِ هنا أنه في هذه الوسيلةِ لا بُدَّ من الاقتصارِ على الأسماءِ التي ثَبَتَتْ عن طريق الوحي، وقد نبَّهَ الزركشي أيضًا إلى وجوب النّظر في اختصاص كلّ سورة بالاسم الذي سمّيت به (الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص270)، وهذا ملحظ مهمٌّ جدًّا على أنّه ينبغي الإشارة إلى أنّ اسم السّورة سبيل من السّبل المتعدّدة في بيان وجه اختصاص كلّ سورة باسمها، ولا يمكن اعتباره السبيل الوحيد للوصول إلى تلكم النتيجة.

ثانيًا: النَّظَرُ إلى السّورة في مجموعها

تقدّم بأنّ السورة الواحدة قد تشتمل على مقصد واحد أو عدة مقاصد، وذلك يُوجِبُ على دارس القرآن اعتبارَ هذه الجهة بأخذ نظرة أوّليّة على السّورة المراد دراستها بتلاوة آياتها من بدايتها إلى نهايتها، لأخذ انطباع أوّليّ حولها، والتعرّف على ما فيها من فنون العلم، فاعتبار جهة النظم في السورة "لا يَتِمُّ به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها" (الشاطبي، الموافقات، ج3، ص415) فكما أنّ الغوّاص الباحث عن الدّرر في أعماق البحار لا بدّ له من اتّخاذ تدابير قبل الخوض في غمار البحر، وذلك بالتعرّف على كلّ ما يحيط به، فكذلك الدّارس لسور القرآن الكريم لا يتقدّم إلى البحث في الصّلات الموضعية بين الآيات والمقاطع "إلا بعد أن يُحْكِمَ النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معوانًا له على السير في تلك التفاصيل عن بَيِّنَة" (عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص199).

ثالثًا: التعرُّفُ على المناسبة بين مقاطع السورة

وهذه الخطوة متصلة بسابقتها، فعند استيفاء النظر في السّورة كلّها، ينتقل الباحث إلى مرحلة البحث في مقاطع السورة، وبيان الصّلات التي تربطُ بعضَها ببعضٍ؛ للتعرّف على المناسبة بينها وربطها بالمحور العام للسّورة، وأثناء اتّباع هذه الخطوات ينبغي على الباحث أن يعلم أنّ الصّلة بين الجزء

والجزء لا تعني اتّحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما أو ما إلى ذلك من الصّلات الجنسيّة فحسب، بل عليه أن يجمع الأجناس المختلفة لا يدعها حتى يبرزها في صورة مؤتلفة، وحتى يجعل من اختلافها قوامًا لائتلافها، وهذا التأليف بين المختلفات ما زال هو "العقدة" التي يطلب حلها في كل فن وصنعة جميلة، وهو المقياس الدقيق الذي تقاس به مراتب البراعة ودقة الذوق في تلك الفنون والصناعات، فإنّ تقويم النّسق وتعديل المزاج بين الألوان والعناصر الكثيرة أصعب مراسًا، وأشدّ عناءً منه في أجزاء اللون الواحد والعنصر الواحد (عبد الله دراز، المرجع نفسه، ص200-202).

رابعًا: استعراضُ الأحداث البارزة أو القضايا الأساسية التي تناولتها السورة

القرآن الكريم في كثير من سوره وآياته كان يتنزّل حسب الوقائع والدواعي المختلفة، لذا كان من الطبيعي أن يأتي ذكرها بين دفتي المصحف الشريف، فقد تعرّضت بعض السور لأحداث وقضايا مهمّة شغلت مساحة معتبرة فيها، فمن خلال استعراض هذه الأحداث يمكن التعرف على هدف السورة أو محورها، ذلك أنّنا "لو أنعمنا النّظر في القضايا البارزة في السّورة لوجدنا أنّ بينها رابطًا يربطها، وقد يدقّ هذا الرابط فلا يُدرك إلا بعد دراسة السّورة دراسة عميقة ومعايشة أجوائها وتفيُّءِ ظلالها" (مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص42).

خامسًا: معرفةُ الفترة الزمنية التي نزلت فيها السورة

بما أن السورة قد اشتملت على وقائع وحوادث مختلفة فإنّ هذه الأحداث تكون مرتبطة بأحوال الأمة في فترة من فترات الزمن المختلفة؛ إذ إنَّ لكلّ حدث ظروفه الخاصّة، فمثلا الآيات التّي نزلت بمكة غير الآيات التّي نزلت بالمدينة. ومعلومٌ أنَّ السور المكية تُعالِجُ تقريرَ أربعة أمور: الإيمان بالله وحده، والإيمان بالبعث بعد الموت، والإيمان بالرسالات السماوية، والدعوة إلى أمهات الأخلاق. فإذا كانت السورة مكية فلا يخلو الأمر من أن يكون من أهدافها الأساسية هذه الأسس الأربعة مجتمعة أو متفرقة. وكذا السور المدنية تستهدِفُ بالإضافة إلى تقرير ما سبق بناءَ المجتمع الإسلامي على أسس من الإيمان والطاعة والتشريعات التفصيلية في شؤون الحياة، فلا تخلو سورة مدنية من قضية البناء، أو الصيانة والحماية، فيمكن التعرف على الهدف الأساسي أيضًا من خلال التعرف على القضايا المعروضة في السورة، ومن خلال المرحلة الزمنية لتطور المجتمع الإسلامي أيضًا (مصطفى مسلم، المرجع نفسه، ص42-43).

سادسًا: القَصَصُ الوارد في السور

احتلّ القصص مساحة الرّبع من القرآن الكريم تقريبًا، وجاءت تفاصيل أحداثها موزّعة على أربع وخمسين سورة (سليمان الدقور، اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، ص200)، وهذا التّوزيع والتّرتيب له أهمِّيَّة بالغة؛ إذ إنَّ القصص "يرد في القرآن في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تُعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدَّى بها، تنسيقًا للجوّ الروحي والفكري والفني الذي تُعرض فيه، وبذلك تُؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب" (سيد قطب، في ظلال القرآن، ج1، ص55). إذًا فأغراض السورة وأهدافها هي المحدّدة لمقدار ما يعرض من القصّة بما يحقّق التّناسق بينهما وبما يخدم المقصد العام للسّورة فلأجل "اختلاف مقاصد السور تتغير نظوم القصص وألفاظها بحسب الأسلوب المفيد للدلالة على ذلك المقصد" (البقاعي، مصاعد النظر، ج1، ص152).

وهذه هي أَهَمُّ الخطوات المنهجية التّي يستبصر بها المتدبّر لكلام الله، من أجلِ الوصول إلى مبتغاه من التعرّف على دقائق معاني السّور وما تكتنفه من أسرار و معان، ولا يمكن القول إنّها الوحيدةُ في ذلك، ولكن هذا ما اجتهد العلماء المتخصّصون في بيانه، وكان لنا منها الانتقاءُ والعَرْض.

المبحث الثاني

علاقةُ القَصَص الوارد في سورة الكهف بمَقْصِدِها العام

وقعَ اختيارُنا على سورة الكهف، لتكونَ مجالًا تطبيقيًّا لاستكشافِ الصلةِ الوثيقة بينَ قَصَصِ السورة ومقصدِها العامِّ، ولا بُدَّ أولًا من تقديمِ السورة، ببيانِ اسمِها، وفضائلِها، وما وردَ في سبب نزولِها، ثم بيان المقصد العامِّ لها. ثم تناولِ كلِّ قِصَّة على حِدَة، وبيانِ علاقتها بالمقصد العام للسّورة، وهذه القصص هي: قصّة أصحاب الكهف، وقصّة صاحب الجنّتين، وقصة آدم وإبليس، وقصة موسى والخضر، وقصّة ذي القرنين.

المطلب الأوّل: بين يدي السورة

أولاً: اسمُ السورة: سمّيت هذه السورة الكريمة بسورة الكهف وهو الاسم الذّي سمّاها به النبيّ عليه الصّلاة والسّلام في حديث رواه مسلم وأبو داود عن أبي الدرداء عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم، قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال» (رواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي 555/1، حديث رقم 257- (809)، ورواه أبو داود في السنن كتاب الملاحم باب خروج الدجال 376/6 حديث رقم 4323).

وفي رواية للترمذي عن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال» (قال الترمذي "هذا حديث حسن صحيح"، رواه في السنن كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة الكهف، 12/5، حديث 2886)، واشتملت على مائة وإحدى عشرة آية (الرازي، مفاتيح الغيب، ج21، ص461)، والسورة مكّية في قول جميع المفسرين كما حكاه ابن عطيّة حيث قال: "هذه السورة مكية في قول جميع المفسرين، وروي عن فرقة أن أول السور نزل بالمدينة إلى قوله: (جرزا) [الكهف: 8] والأوّل أصح" (ابن عطية، المحرر الوجيز، ج3، ص494).

ثانياً: فضائلُها: ورد في فضائل السورة الكريمة أحاديث تنوّه بشرفها ومكانتها، وترغّب في قراءتها وتعلّمها، فبالإضافة إلى حديثي أبي الدّرداء السّابقين وردت أحاديث أُخر منها:

1. ما جاء عن أبي سعيد الخدري أن النبي صّلى الله عليه وسلم قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين» (رواه البيهقي في السنن الكبرى كتاب الجمعة باب: ما يؤمر به في ليلة الجمعة ويومها من كثرة الصلاة على رسول الله وقراءة سورة الكهف 3/ 249، رقم (6209) والحاكم في المستدرك على الصحيحين كتاب التفسير، باب تفسير سورة الكهف، 399/2، رقم (3392) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه).
2. ما رواه البخاري عن البراء بن عازب، قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف، وإلى جانبه حصان مربوط بشَطَنَيْنِ، فتغشّته سحابة، فجعلت تدنو وتدنو وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال: «تلك السكينة تنزلت بالقرآن» (رواه البخاري- كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف، 188/6، رقم (5011)).

ثالثاً: سببُ نزول السورة: يُرْوَى في سبب نزول السورة حديث مشهور (هذا الحديث من الأحاديث المشتهرة التي لم تصح، والطريق الذي جاء به الحديث هو أشهر طرق الرواية وهو ضعيف لجهالة شيخ ابن اسحاق، ولعلّنا نضيف أنّ ما ورد فيه من سؤال عن الرّوح، هو أيضًا ممّا يكون مظنّة الاضطراب ودخول حديث في حديث، فالسّؤال عن الرّوح في الإسراء وخبر أصحاب الكهف في سورة الكهف، فما العلاقة بينهما؟) مفاده أن قريشًا طلبت من يهود أن يُعْلِموهم عن حال النبي صلى الله عليه وسلم بوصفِهم أهل الكتاب الأُوَل، فقالت لهم يهود سلوه عن ثلاثة أشياء فإن أجابكم فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل، فَرُوْا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طَوَّاف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك، فإنه نبي فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم، فهو رجل مُتَقَوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فرجعوا فسألوا النبي عنها فقال سأخبركم عنها غدًا ولم يستثن فتأخر عنه الوحي حتى تكلم أهل مكة بذلك مما أحزن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم جاءه جبريل بسورة الكهف ومعاتبًا له على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطَّوَّاف، وقول الله عز وجل: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) [الاسراء: 85]" (الطبري، جامع البيان، ج17، ص592).

المطلب الثاني: المقصد العامُّ للسورة

يرى البقاعي أنّ مقصود السورة امتداد لمقصد من مقاصد سورة الإسراء المتمثّل في نفي الشريك عن الله، وبيان وحدانيّته وعلمه وقدرته على كلّ شيء، واعتبرَ أنَّ قصة أصحاب الكهف كانت الأقرب إلى إيصال هذا المعنى. وذكر أن أدلَّ ما فيها على هذا المقصد قصةُ أهل الكهف، لأن خبرهم أخفى ما فيها من القصص، مع أنَّ سبب فراقهم لقومهم الشرك، وكان أمرهم موجباً بعد طول رقادهم للوحدانية، وإبطال الشرك (البقاعي، مصاعد النظر، ج2، ص243-244).

ويذهب سيد قطب إلى أن المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها، ويدور حوله سياقها، هو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة (سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2257-2258).

وجاء في كتاب (التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم) أن المقصد العام للسورة يدور حول الهدف الأساسي الذي نزل من أجله القرآن وهو العصمة من أمواج الفتن المتلاطمة وحشودها المتلاحمة، فتن متنوعة متباينة متزاحمة تجعل الحليم حيران: فتنة السلطان، وفتنة الأهل والعشيرة، وفتنة المال، وفتنة الولد، والاغترار بالدنيا الفانية، وفتنة إبليس اللعين، وفتنة العلم، وفتنة يأجوج ومأجوج، وفتنة الأهواء (مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج4، ص287-288) فيما ذهب مصطفى مسلم إلى أنّ سورة الكهف بيّنت القيم التي يمكن للمسلم أن يتّخذها كميزان للتفريق بين الحق والباطل، وبين الصدق والكذب، واختار عنوان "القيم في ضوء سورة الكهف" لدراسة السورة وبيان ما ذهب إليه (مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، مرجع سابق، ص178).

ويرى أبو الحسن الندوي أنّ سورة الكهف تمثل قصّة الصّراع بين النظريتين والعقيدتين، صراع بين الإيمان بالمادة وما يتبعها، وبين الإيمان بالغيب والإيمان بالله (أبو الحسن

الندوي، المدخل إلى الدراسات القرآنية وتأملات في سورة الكهف، ص119).

ويذكر فضل عباس أنَّ سورة الكهف جاءت لتهدي المسلمين في فجاج هذه الحياة إلى سبل الخير، مبينًا أنّ قصص السورة جاءت لتبيّن العناصر التي يجب أن تتوافر عند المسلمين ليكونوا أقوياء، وهذه العناصر هي: العقيدة والعلم والجهاد (فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ص739).

هذا ما ذكره بعض أهل الفضل في بيان المقصد العام للسّورة، كلٌّ من وجهة نظره، وهي متكاملة في مُجْمَلِها، وتدور حول بيان سبل الهداية التّي تجعل الإنسان يقف على أسبابِ الفتن المحيطة به؛ ليتجنّبها ويقف منها موقف المتبصِّر، الخبير بأمر دينه ودنياه.

ولعلَّ ما جاء في (التّفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم) من اعتبار العصمة من الفتن هو المقصد العام لسورة الكهف، لعلَّ هذا القولَ هو الأقربُ إلى الجوِّ العامِّ للسورة؛ وذلك لورود الأحاديث التّي تبيّن أنّ من قرأها عُصِمَ من فتنة الدجّال، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإنّ اسم سورة الكهف فيه ما فيه من معاني الإيواء والطّمأنينة والملاذ الآمن؛ فالكهفُ "مأوى وملجأ للإنسان من الوحوش الضارية والآفات والتقلبات، وحين لجأ إليه الفتية وجدوه ملاذًا آمنًا، كذلك السورة الكريمة عصمة ونجاة لقارئِها من جميع الفتن (مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج4، ص288) وهو ما جعل الشيخ الشّعراوي يعتبر أنَّ سورة الكهف مليئة بالكهوف المعنوية، ويعتبر أنّ كل قصّة فيها هي كهف من الكهوف (الشعراوي، محمد متولي، سورة الكهف، ص4).

المطلب الثالث: العلاقة بينَ قَصَصِ السورة ومقصدِها العام

الفرع الأوّل: علاقة قصّة أصحاب الكهف بالمقصد العام للسورة

أوّلاً: مُجْمَلُ القصّة ذُكرت قصّة أصحاب الكهف في سورة الكهف من الآية [9 إلى الآية 26] من السورة الكريمة، وأحداثها من آيات الله العجيبة في خلقه، وما ذكره القرآن الكريم من أحداث هذه القصّة اقتَصَرَ على بيان الأمور المهمّة المعتبرة فيها، وغَضَّ الطَّرْفَ عن أمور أخرى متعلّقة بذكر أسماء شخصيات القصّة، وزمانهم ومكان وقوع الحادثة، وما إلى ذلك من التّفصيلات التّي رواها الروّاة والمؤرّخون، ممّا يمكن الاستغناء عنه؛ لأنَّ القرآن هو المصدر الوحيد المستَيْقَنُ من حقائقه، وقد أشار إلى ذلك سيد قطب حينَ قال: "في القصة روايات شتى، وأقاويل كثيرة؛ فقد وردت في بعض الكتب القديمة وفي الأساطير بصور شتى، ونحن نقف فيها عند حد ما جاء في القرآن، فهو المصدر الوحيد المستيقن، ونطرح سائر الروايات والأساطير التي اندسّت في التفاسير بلا سند صحيح" (سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2261) وهذا هو المناسبُ لبيان الخطوط العريضة للقصّة بما يتوافق وموضوعَ البحث، فمجال الدّراسة لا يسمح بسرد تفاصيل القصّة بتمامها، ولكن ما يهدي إلى بيان المقصد من إيراد القصّة واستخلاص العبر منها.

وقد "أشارت الآية إلى قصة نفر من صالحي الأمم السالفة ثبتوا على دين الحق في وقت شيوع الكفر والباطل فانزَوَوْا إلى الخلوة تجنبًا لمخالطة أهل الكفر فَأَوَوْا إلى كهف استقروا فيه فرارًا من الفتنة في دينهم، فأكرمهم الله تعالى بأن ألقى عليهم نومًا بَقُوا فيه مدة طويلة، ثم أيقظهم فأراهم انقراض الذين كانوا يخافونهم على دينهم، وبعد أن أيقنوا بذلك أعاد نومتهم الخارقة للعادة فأبقاهم أحياء إلى أمد يعلمه الله أو أماتهم وحفظ أجسادهم من البِلى كرامة لهم، وقد عرف الناس خبرهم ولم يقفوا على أعيانهم ولا وقفوا على رقيمهم، ولذلك اختلفوا في شأنهم، فمنهم من يثبت وقوع قصتهم، ومنهم من ينفيها" (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص261).

ثانياً: المقصدُ من القصّة التمسّك بالعقيدة الصّحيحة، وتحقيق العبودية لله، ونفي الشّريك عنه، كان هو العنوانَ الأبرز في قصّة أصحاب الكهف؛ فقد جاءت القصّة لتبيّن مدى اعتبار الإيمان الصّحيح الرّاسخ في تغيير الأوضاع بحسن التوكّل على الله، والأخذ بالأسباب؛ إذ ثارَ أولئكَ الفتيةُ على عبادة قومِهم للأصنام، واتّخاذها آلهة من دون الإله الحقّ افتراء وكذبًا؛ فقد صدعوا بالحقّ في بيئة عمّ الباطل جميع أرجائها، وخفت صوت الحقّ فيها: (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) [الكهف: 14]، فلمّا كان هذا الاستعداد الصّادق منهم أمدّهم الله برحمة منه، وربط على قلوبهم ليثبتوا على ما هم عليه، وأرشدهم إلى سواء السّبيل، وآواهم إليه ليهيّئ لهم البيئة التّي يسعون إلى إقامة الحقّ والعدل فيها، استجابة لنداء الايمان في قلوبهم بأن لا معبود بحقّ إلاّ الله، فقصةّ هؤلاء الفتية "مَثَلٌ عالٍ، ورمزٌ سامٍ للتضحية بالوطن والأهل والأقارب والأصدقاء والأموال في سبيل العقيدة" (الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج15، ص198).

ثالثاً: علاقةُ القصة بالمقصد العامِّ للسورة

تقدَّمَ الذكرُ أنَّ العصمة من الفتن هو المِحْوَرُ الذي تدور حوله آيات السورة الكريمة، وفي أخبار أصحاب الكهف طرف من ذلك؛ فقد فرّ الفتية من قومهم الذين فتنوهم في دينهم باتّخاذهم آلهة من دون الله، و"رَفَضُوا ضغوطَ السلطة والبيئة

والمجتمع، والتجئوا إلى كنف الله سبحانه وتعالى وحمايته، فحماهم من الفتنة" (مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص218)، بتأمين سبيل الهداية لهم، وايوائهم إلى الكهف، وبسط الرحمة في أرجائه، وتوفير ما يضمن لهم البقاء، فكانوا في ولاية الله وحفظه إكرامًا لهم وعنايةً بهم، وكانت (التّهيئةُ) "تشبيها بتهيئة القِرَى للضيف المُعتنى به" (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص277) وأكرِم به من نُزل في ضيافة الرحمن!

وثمّ يأتي بعد ذلك التّعقيب الإلهي بأخذ العبرة من أمر هؤلاء الفتية، وذلك من حيث "دلالتُها على البعث بمَثَلٍ واقعيٍّ قريبٍ محسوس، يقرب إلى الناس قضيّة البعث، ليعلموا أنّ وعد الله بالبعث حقّ، وأن الساعة لا ريب فيها، وعلى هذا النحو بعث الله الفتية من نومتهم وأعثر قومهم عليهم" (سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2264)؛ لتنتهي بذلك آيات هذه القصّة بخاتمة مهمّة ندرك من خلالها السرّ الخفيّ وراء هذه الآية العظيمة من أمر هؤلاء الفتية، فهو الولي لهم والحافظ لشؤونهم بلطفه وكرمه، إذ لم "يُوالِهِم غيرُه بتَلَطُّفٍ لهم، ولا اشتركَ معه أحدٌ في هذا الحُكْم" (ابن عطية، المحرر الوجيز، ج3، ص511).

وبذلك ندرك مدى عناية الله تعالى بعباده المؤمنين السّالكين طريق الهداية إليه، فمن لزم منهج الله وتوكّل على الله حقّ توكّله، فسيحميه من جميع الفتن المحيطة به، ويصرف عنه كلّ سوء ويهديه إلى سواء السّبيل، ومن حاد عن منهجه واختار الضّلال على الهدى فلن تجد له وليًّا مرشدًا.

الفرع الثاني: علاقة قصّة صاحب الجنتين بالمقصد العامّ للسّورة

أولاً: مُجْمَلُ القصّة يقول الله تعالى لنبيّه محمّد عليه الصلاة والسّلام: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا) [الكهف: 32] أي: اضرب للكافرين والمؤمنين مثلاً حالَ رجلين جعل الله لأحدهما جنتين، أي: بستانَيْنِ من أعناب، محفوفتين بالنخل وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر وفي غاية الجود؛ وكان لصاحب الجنتين مال غير الجنتين، فقال لصاحبه وهو يحاوره: أنا أكثر منك خدمًا وحشمًا وولدًا، وما أظن أن تبيد وتفنى هذه الجنة أبدًا وما أظن الساعة كائنة فيما سيأتي، ولئن كان معاد ورجعة ومَرَدٌّ إلى الله، ليكونَنَّ لي هناك أحسنُ من هذا لأني مَحْظِيٌّ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا؛ فأجابه صاحبه المؤمن، واعظًا له وزاجرًا عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار: أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سَوَّاكَ رجلًا؟ هلا قلتَ عند دخول جنّتك: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، اعترافًا بأنها وكل خير فيها إنما حصل بمشيئة الله وفضله، إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى، فيرزقني لإيماني جنة خيرًا من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بستانك؛ وأحاط الهلاك والجوائح بثمر صاحب الجنتين فأصبح يقلب كفيه ظهرًا لبطن، تلهفًا وأسفًا على ذهاب نفقته التي أنفق في جنته، وهي خاوية على عروشها، ويقول: يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا، كما قال له صاحبه. فندم حيث لم ينفعه الندم على ما فرط في الماضي لأجل ما فاته من الدنيا، لا حرصًا على الإيمان لتحصيلِ الفوزِ في العقبى، لقصور عقله ووقوفه مع المحسوسات المشاهدات ولم تكن له فئة أي جماعة لا من نفره الذين اعتز بهم ولا من غيرهم ينصرونه مما وقع فيه من دون الله، أي بغير عون من الملك الأعظم، وما كان هو منتصراً بنفسه، بل ليس الأمر في ذلك إلا لله وحده (ينظر: الطبري، جامع البيان، 27/18، والبقاعي، نظم الدرر، 65/12، والزمخشري، الكشاف، 723/2، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم، 222/5، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 157/5-158، وسيد قطب، في ظلال القرآن، 2270/4، وابن عاشور، التحرير والتنوير، 319/15-320).

ثانياً: مناسبةُ القصّة لسياقها ذكرَ ابنُ عاشور في مستهلّ تفسيره للآية الكريمة أنَّ الله تعالى بعدَ "أنْ بيّن لهم ما أعد لأهل الشرك وذكر ما يقابله مما أعده للذين آمنوا ضرب مثلًا لحال الفريقين بمثل قصة أظهر الله فيها تأييده للمؤمن وإهانته للكافر، فكان لذلك المثل شبه بمثل قصة أصحاب الكهف من عصر أقرب لعلم المخاطبين من عصر أهل الكهف، فضرب مثلا للفريقين للمشركين وللمؤمنين بمثل رجلين كان حال أحدهما معجبًا مؤنقًا وحال الآخر بخلاف ذلك فكانت عاقبة صاحب الحال المونقة تباباً وخسارة، وكانت عاقبة الآخر نجاحًا، ليظهر للفريقين ما يجره الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الأرزاء، وما يلقاه المؤمن المتواضع العارف بسنن الله في العالم من التذكير والتدبر في العواقب فيكون مُعَرَّضًا للصلاح والنجاح" (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص315).

ثالثاً: المقصدُ من القصّة وردت هذه القصّة في سياق الحديث عن موقف المشركين المترفين تُجاهَ المؤمنين الفقراء الذين كانوا يحضرون مجالس رسول الله عليه الصلاةُ والسلام، فقد "رُوِيَ أنّها نزلت في أشراف قريش (قام صاحب كتاب (المحرر في أسباب النزول) بدراسة الرواية التّي اعتمد عليها المفسرون أو بعضهم لبيان سبب نزول الآية، فخلص إلى نتيجة مفادها أنّ سند الرواية ضعيف، ولكن ما يجبر هذا

الضّعف هو إجماع المفسرين على المعنى الذي دلَّ عليه الحديث، وكذلك سياق القرآن فإن السياق يطابق كلام المفسرين تماماً، ويدل عليه، ويُشيرُ سبب نزولها. ينظر: خالد بن سليمان المزيني، المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية، ص681-684)، حين طلبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطرد فقراء المؤمنين من أمثال بلال وصهيب وعمار وخباب وابن مسعود إذا كان يطمع في إيمان رؤوس قريش، أو أن يجعل لهم مجلسًا غير مجلس هؤلاء النفر" (سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2268) فهؤلاء النّفر من فقراء المسلمين كانوا يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه، يرجون رحمته ويخافون عذابه، ولم تلههم زخارف الدّنيا ومتاعها عن الإقبال على الله، وشكر نعمه وآلائه الكثيرة بخلاف أولئك النّفر من المترفين الذين غرّتهم الحياة الدّنيا وزينتها واستولت عليهم الغفلة حتّى نسوا المُنعِم ولم يفكّروا إلاّ في أنفسهم، فأخذتهم العزّة والأنفة والكبرياء بازدراء الفقراء والبعد عن مخالطتهم ومجالستهم، اتباعًا للهوى وما تمليه عليهم نفوسهم المريضة، فجاءت هذه القصّة مثلًا لهذين الصّنفين من النّاس لتبيّن عاقبة من اغترّ بماله وولده واتّخذ من جماعته دون الله وليًّا، وعاقبة من اعتمد على الله المُنعم، فالأوّل لم يفلح في مسعاه وخسر الدّنيا والآخرة، والثاني أصاب الحقّ ونال خيري الدّنيا والآخرة، فقد "أفصحت هذه الآي منها باغترار أحدهما بما لديه وركونه إلى توهم البقاء، وتعويل صاحبه على ما عند ربه، ورجوعه إليه وانتهاء أمره- بعد المحاورة الواقعة في الآيات بينهما- إلى إزالة ما تخيل المفتون بقاءه، ورجع ذلك كأن لم يكن، ولم يبق بيده إلا الندم، ولا صح له من جنته بعد عظيم تلك البهجة سوى التلاشي والعدم، وهذه حال من ركن إلى ما سوى المالك، ومَنْ كُلُّ شيء إلا وجهه سبحانه وتعالى فانٍ وهالك، (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ) [محمد: 36]، (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) [الذاريات: 50] ثم أعقب ذلك بضرب مثل الحياة الدنيا لمن اعتبر واستبصر" (ابن الزبير أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الثقفي الغرناطي، (ت: 708هـ) البرهان في تناسب سور القرآن، ص250).

رابعاً: علاقةُ القِصّة بالمقصد العام للسّورة: وصف الله عزّ وجلّ في بداية القصّة الجنّتين اللّتَيْنِ يملكهما أحد الرّجلين بما فيهما من خيرات العنب والنخيل والزّرع المتنوّع الأصناف ونسب تعالى كلّ ذلك إلى إكرامه وفضله فقال: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ،كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) [الكهف: 32-33] فكان الأحرى بالرّجل صاحب الجنّتين أن يشكر نعمة الله عليه إلاّ أنّه قابل الإحسان بالجحود والنّكران، فكانت عاقبته الهلاك (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا) [الكهف: 42-43] وكانت هذه العاقبة درسًا للرّجل ليعود إلى رشده، ويعلم علم اليقين أنّ الدّنيا وما فيها من فتن المال والجاه ما هي إلاّ دار ابتلاء، والكلّ مبتلى والفتنة ليست مقصودة بذاتها وإنّما هي مرتبطة بردّة فعل الإنسان اتّجاهها أيصبر ويشكر أم يجحد ويكفر؟ وما الحياة الدّنيا إلاّ كما وصفها الله تعالى تعقيبًا على هذه القصّة: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) [الكهف: 45]، وزيادةَ تأكيدٍ على عدم الاغترار بالمال والولد والافتتان بزخارف الدنيا وزينتها قال تعالى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) [الكهف: 46]، فهذه القصّة وما تحمله من عبر مع ما أعقبه الله من بيان لحقيقة الحياة الدنيا كلّها ممّا يدعو الإنسان إلى الحذر من فتنة المال ومعرفة كيفية التّعامل مع هذا الابتلاء، وهذا الدّرس كلّه "تقرير للقيم في ميزان العقيدة، إن القيم الحقيقية ليست هي المال، وليست هي الجاه، وليست هي السلطان، كذلك ليست هي اللذائذ والمتاع في هذه الحياة... إن هذه كلها قيم زائفة وقيم زائلة، والإسلام لا يُحَرِّمُ الطيب منها، ولكنه لا يجعل منها غاية لحياة الإنسان، فمن شاء أن يتمتع بها فليتمتع، ولكن ليذكر الله الذي أنعم بها، وليشكره على النعمة بالعمل الصالح، فالباقيات الصالحات خير وأبقى" (سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2267).

الفرع الثالث: قصة آدم وإبليس

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) (الكهف/50).

أولًا: مجمل القصة: وردت قصة آدم وإبليس في القرآن الكريم في مواضع متعددة (في عشر سور: البقرة، آل عمران، المائدة، الإسراء، الكهف، مريم، طه، يس، ص) بصياغات مختلفة، ولقطات متباينة.

ويدور مجمل القصة على أن الله- عزّ وجلَّ- بعد أن اختار آدم- عليه السلام- خليفة في الأرض، وعلّمه الأسماء كلّها، أمر الملائكة بالسجود له تكريمًا؛ فسجدوا طائعين، إلا إبليس اللعين، فلم يمتثل لأمر الله، وتكبر وخرج عن حدود ما أُمِر به. وبيّنت الآية الكريمة أن سببَ استكباره هو اعتزازه وافتخاره بأصله ونسبه، وهو ما يفهم من قوله تعالى: (كَانَ مِنَ

الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) وهو ما تفسّره الآيات الأخرى الواردةُ في القرآن من مثلِ قوله تعالى على لسان إبليس: (أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) (الأعراف: 12). قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: (كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ): "أي: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور... فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة. ونبَّهَ تعالى هاهنا على أنه {مِنَ الْجِنِّ} أي: إنه خُلِق من نار، كما قال: (أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ)" (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 176/5) فجاءت الآية الكريمة مستنكرة وموبّخة ومعجّبة من حال من يتَّخذ إبليس وذريّته أولياء من دون الله بعد أن عرف حال إبليس، وتبيَّنت له عداوته، وتجلّى له موقفه من أبينا آدم عليه السلام.

ثانياً: مناسبةُ الآية لما قبلها ذكر المفسّرون وجوهًا متعدّدة تظهر ارتباط الآية بما قبلها، وانسجامها مع سياقها، وفيما يأتي بيان لذلك:

قال الإمام الرازي: "اعْلَمْ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ الْآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ الرَّدُّ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ افْتَخَرُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَعْوَانِهِمْ عَلَى فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ. وَهَذِهِ الْآيَةُ الْمَقْصُودُ مِنْ ذِكْرِهَا عَيْنُ هَذَا الْمَعْنَى، وَذَلِكَ لِأَنَّ إِبْلِيسَ إِنَّمَا تَكَبَّرَ عَلَى آدَمَ لِأَنَّهُ افْتَخَرَ بِأَصْلِهِ وَنَسَبِهِ، وَقَالَ: خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ؛ فَأَنَا أَشْرَفُ مِنْهُ فِي الْأَصْلِ وَالنَّسَبِ فَكَيْفَ أَسْجُدُ وَكَيْفَ أَتَوَاضَعُ لَهُ! وَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ عَامَلُوا فُقَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ بِعَيْنِ هَذِهِ الْمُعَامَلَةِ فَقَالُوا: كَيْفَ نَجْلِسُ مَعَ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ مَعَ أَنَّا مِنْ أَنْسَابٍ شَرِيفَةٍ وَهُمْ مِنْ أَنْسَابٍ نَازِلَةٍ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ وَهُمْ فقراء، فالله تعالى ذكر هذه القصة هاهنا تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ هِيَ بِعَيْنِهَا طَرِيقَةُ إِبْلِيسَ ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى حَذَّرَ عَنْهَا وَعَنِ الِاقْتِدَاءِ بِهَا فِي قَوْلِهِ: أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ فَهَذَا هُوَ وَجْهُ النَّظْمِ وَهُوَ حَسَنٌ مُعْتَبَرٌ، وَذَكَرَ الْقَاضِي وَجْهًا آخَرَ فَقَالَ: إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ مِنْ قَبْلُ أَمْرَ الْقِيَامَةِ وَمَا يَجْرِي عِنْدَ الْحَشْرِ وَوَضْعَ الْكِتَابِ وَكَأَنَّ الله تعالى يريد أن يذكر هاهنا أَنَّهُ يُنَادِي الْمُشْرِكِينَ وَيَقُولُ لَهُمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِي زَعَمْتُمْ وَكَانَ قَدْ عَلِمَ تَعَالَى أَنَّ إِبْلِيسَ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى إِثْبَاتِ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءِ، لَا جَرَمَ قَدَّمَ قِصَّتَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِتْمَامًا لِذَلِكَ الْغَرَضِ" (الرازي، مفاتيح الغيب 21/ 471-472، وينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور 74/12، وأبو حيان، البحر المحيط 189/7).

وذكر ابن عاشور وجهين لارتباط الآية بسياقها فقال:"عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ} [الْكَهْف: 47] بِتَقْدِيرِ: وَاذْكُرْ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ، تَفَنُّنًا لِغَرَضِ الموعظة الَّذِي سيقت لَهُ هَذِهِ الْجُمَلُ، وَهُوَ التَّذْكِيرُ بِعَوَاقِبِ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الصَّالِحَاتِ، وَبِمَدَاحِضِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعُجْبِ وَاحْتِقَارِ الْفَضِيلَةِ وَالِابْتِهَاجِ بِالْأَعْرَاضِ الَّتِي لَا تُكْسِبُ أَصْحَابَهَا كَمَالًا نَفْسِيًّا. وَكَمَا وُعِظُوا بِآخِرِ أَيَّامِ الدُّنْيَا ذُكِّرُوا هُنَا بِالْمَوْعِظَةِ بِأَوَّلِ أَيَّامِهَا وَهُوَ يَوْمُ خَلْقِ آدَمَ، وَهَذَا أَيْضًا تَمْهِيدٌ وَتَوْطِئَةٌ لِقَوْلِهِ:(وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) (الكهف: 52)، فَإِنَّ الْإِشْرَاكَ كَانَ مِنْ غُرُورِ الشَّيْطَانِ بِبَنِي آدَمَ.

وَلَهَا أَيْضًا مُنَاسَبَةٌ بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْحَتْ عَلَى الَّذِينَ افْتَخَرُوا بِجَاهِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَاحْتَقَرُوا فُقَرَاءَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْكَمَالِ الْحَقِّ وَالْغُرُورِ الْبَاطِلِ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) (الكهف: 28، فَكَانَ فِي قِصَّةِ إِبْلِيسَ نَحْوَ آدَمَ مَثَلٌ لَهُمْ، وَلِأَنَّ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ تَذْكِيرًا بِأَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ أَصْلُ الضَّلَالِ، وَأَنَّ خُسْرَانَ الْخَاسِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آيِلٌ إِلَى اتِّبَاعِهِمْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَائِهِ. وَلِهَذَا فَرَّعَ عَلَى الْأَمْرَيْنِ قَوْلَهُ تَعَالَى: (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ)" (ابن عاشور، التحرير والتنوير 15/ 340).

وأضاف الخطيبُ وجهًا آخر للمناسبة فقال: "مناسبة هذه الآية لما قبلها، هى أن الآيات السابقة قد عرضت الناس بين يدى الله يوم القيامة، فإذا هم مؤمنون، وكافرون... مؤمنون قد آمنوا بالله، واستجابوا لدعوته على يد رسله، وكافرون قد خرجوا عن أمر الله، وعصوا رسله... وهنا صورة فى الملأ الأعلى، تشبه هذه الصورة التي وقعت فى الأرض... حيث جاءت دعوة الله إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم، فسجدوا امتثالا لأمر الله... ولكن كائنًا من كائنات الملأ الأعلى قد غلبت عليه شقوته، ففسق، أي خرج عن أمر ربّه، وأبى أن يسجد! فطرده الله من الملأ الأعلى، وألقى به إلى العالم الأرضى، صورة للتمرد والعصيان، ودعوة من دعوات الإغواء والإفساد والفسوق عن أمر الله، إلى جانب الدعوة التي يحملها رسل الله إلى الناس بالهدى والإيمان" (الخطيب، التفسير القرآني للقرآن 8/ 631).

ويمكن القول إن قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ،) جاءَ متناسبًا مع قوله سبحانَه: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (الكهف: 49)؛ إذ ذكرت هذه الآية حال المجرمين يوم القيامة والمصير الذي سيلاقونه، والحسرة التي أصابتهم بعد انكشاف الحساب، وإحصاء الأعمال. ثم جاء قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) لذكر نموذج من نماذج الإجرام

والكبر والطغيان والجحود متمثلًا في إبليس اللعين؛ تنبيهًا وتذكيرًا لبني آدم أن لا يتابعوه ولا يغترّوا بأمانيه. ونرى أنّ كلَّ ما ذُكِرَ من وجوه المناسبة بين الآية وسياقها يمكن المصير إليه دون أن يكون بينها تعارض أو تناقض؛ ذلك أنَّ اللّطائف تتزاحم ولا تتعارض.

ثالثاً: مقصد ذكر القصّة ذكرنا آنفاً أنّ هذه القصّة تكرر ذكرها في مواضع متعددّة من القرآن، وأن تكرارها كان لفوائد وأسرارٍ، اختَصَّت كلُّ سورة بشيء من ذلك. قال الإمام الرازي: "وَهَذِهِ الْقِصَّةُ وَإِنْ كَانَ تَعَالَى قَدْ كَرَّرَهَا فِي سُوَرٍ كَثِيرَةٍ إِلَّا أَنَّ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهَا فَائِدَةً مُجَدَّدَةً" (الرازي، مفاتيح الغيب 21/ 472).

وأكّد هذا المعنى ابن عاشور مبيّنًا سرّ ذكر القصّة في سورة الكهف بقوله: "وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تَكَرَّرَتْ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَهِيَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْءٍ لَمْ تَشْتَمِلْ عَلَيْهِ فِي الْآخَرِ، وَلَهَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ذُكِرَتْ فِيهِ عِبْرَةٌ تُخَالِفُ عِبْرَةَ غَيْرِهِ، فَذِكْرُهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (مثلًا) إِعْلَامٌ بمبادىء الْأُمُورِ، وَذِكْرُهَا هُنَا تَنْظِيرٌ لِلْحَالِ وَتَوْطِئَةٌ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ، وَقِسْ عَلَى ذَلِكَ" (ابن عاشور، التحرير والتنوير 15/ 340).

ويكشف لنا المطعنيُّ عن شيء مما يقصده ابن عاشور فيقول: "ونرى أن نذكر ملاحظة جديرة بالتسجيل هي أن الإشارة جاءت عابرة عن قصة آدم فى سورة الكهف. وهي وإن اشتملت على العناصر الثلاثة التي لم يخل منها مصدر من مصادر القصة، فإن جانب القصص غير ظاهر فيها، وإنما جيء بها تمهيداً لإنكار أن يتخذ الناس إبليس وذُرِّيته أولياء من دون الله... والعهد المكي لم يكن في حاجة إلى تفصيل بعد أن تحدثت عنها خمس سور مكية في تفصيل ووضوح. لذلك جاءت آية "الكهف" لمحة عابرة إلى حديث طويل معلوم وذائع أمره.

كما أن هذه السورة على وجازة ما جاء في آيتها من حديث القصة فإنها اشتملت على جديد لم يُصرَّح به في غيرها. وذلك الجديد هو: (إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) فنسبَتُه إلى الجِنِّ والحُكْمُ علَيه بالفسق لَم يَرِدْ إلا في آية "الكهف". وهذا يعطينا قيمة عظيمة هي أن القصة المتكررة في القرآن لم تخل من جديد وإن قصرت في موضع دون آخر" (المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية 1/ 350).

ومن المقاصد التي يمكن استخلاصها من الآية الكريمة:

1. بيان تكريم الله سبحانه وتعالى لآدم وذريته، ومن مظاهر هذا التكريم الاستخلاف في الأرض، وبيان المنهج الحقّ للعصمة من الفتن.
2. بيان حقيقة الصّراع بين الإنسان والشيطان، وأن إبليس هو رأس الشر، ومنبع الفتن؛ ففي إيراد قصة إبليس تحذيرٌ من فتنته ووساوسه، واعتبارٌ بِكِبْرِهِ وغروره وعُجبه واختيالِهِ الذي حَمَلَهُ على التمرُّدِ والعصيانِ، وأودى به إلى التهلكة والخسران، وفي هذا درس لكل متكبِّر مغرورٍ أن يحذر عاقبة ذلك، ودرس للإنسانية أن تحذر من موالاة إبليس وذريته والانسياق لوساوسه ونزغاته فهو أعظم خطرٍ يهدد الإنسانية (الشرقاوي، أحمد، التفسير الموضوعي لسورة الكهف ص: 65، وينظر: سيد طنطاوي، التفسير الوسيط 8/ 533).
3. بيان أنّ من أمضى أسلحة إبليس وأشدِّها خطرًا على الإنسانية فتنة الاغترار بزينة الدنيا الماحلة وزخارفها الباطلة (المرجع السابق)؛ إذ إن من مقاصد ذِكْرِها بعدَ الآياتِ الْمُتَقَدِّمَةِ عليها الرَّدُّ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ افْتَخَرُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَعْوَانِهِمْ عَلَى فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، ببيانِ أنَّ إِبْلِيسَ إِنَّمَا تَكَبَّرَ عَلَى آدَمَ لِأَنَّهُ افْتَخَرَ بِأَصْلِهِ وَنَسَبِهِ (ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب 471/21).

رابعاً: علاقة القصة بالمقصد العام للسورة: بَيَّنَّا فيما سبق أن المقصد الذي انعقدت عليه السورةُ الكريمةُ هو (العِصْمةُ من الفتن)، وقد تحدّثت السورة في مطلعها عن الابتلاء والاختبار بقوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (الكهف: 7)، وإن الإنسان في سيره في هذه الحياة ليتعرض إلى ألوان من الفتن، وأنواع من المحن والابتلاءات تكاد تعصف به، وتحول بينه وبين السير على الطريق السويّ، وإنّ من أعظم هذه الفتن فتنة الشيطان؛ وذلك أنّ الشيطان رأس الشرّ، ومنبع الكفر، وهو أكبر عدوٍّ للإنسان؛ يجري منه مجرى الدّمِ. وقد حذّرنا الله– عزّ وجلّ– من فتنته في آيات كثيرة من القرآن، مذكِّرًا لنا بعداوته في آيات أخرى. وتحذير الله لنا من الشيطان رحمةٌ منه تعالى؛ ليكون الإنسان على بصيرة من أمره، فلا يقع في حبائل الشيطان ومكائده.

وفي سورة الكهف يحذّرنا الله– عزّ وجلّ– من الشيطان بعد أن بيّن لنا حال المفتونين بالدنيا أموالاً وأولاداً؛ لأنّ الاغترار بالدّنيا وزينتها من أعظم الوسائل التي يتمكّن الشيطان بها من فتنة الإنسان وإضلاله؛ ولهذا جاءت الآية مبيّنة لهذه الحقيقة، مستنكرةً موبّخةً حالَ أولئك الذين يوالون الشيطان ويتابعونه ويفتتون به مع علمهم بحاله، وظهور مصيره ومآله (ينظر: عبد الحميد طهماز، العواصم من الفتن في سورة الكهف، ص80–81).

وبناء على ما تقدّم نرى أنّ قصص سورة الكهف الأربعَ

يربطها محور واحد وهو أنها تجمع الفتن الأربعَ في الحياة، وهي: فتنة الدين (قصة أهل الكهف)، وفتنة المال (صاحب الجنتين)، وفتنة العلم (موسى والخضر)، وفتنة السلطة (ذو القرنين). وهذه الفتن شديدة على الناس، والمحرِّكُ الرئيسُ لها جميعًا هو الشيطان الذي يزيّن هذه الفتن؛ ولهذا جاءت الآية: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) (الكهف: 50) وفي وسط السورة أيضاً متوسّطةً القصص الأربع؛ فقبلها قصة أصحاب الكهف النموذج المثالي للثبات على المبدأ، والتمسّك بالحقّ، وإيثار الحقّ على الباطل، دفعاً لنزغات الشيطان وتثبيطاته؛ فهولاء قد تجاوزوا الاختبار ونجحوا فيه. وقبلها أيضًا قصة صاحب الجنّتين نموذج اتباع الهوى والشيطان تحقيقًا لرغبات النفس وشهواتها، ونزوات الجوارح وملذّاتها؛ فقد زيّن الشيطانُ لهذا الرجل الاستغناء عن خالقه بما أوتي من مال وولد؛ فكان ذلك سبب هلاكه، وذهاب ماله وولده.

وإذا ما نظرنا إلى القصتين اللّتين جاءتا بعد قصة آدم وإبليس وجدنا القصة الأولى (قصة موسى والخضر) عليهما السلام تبيّن لنا نموذجًا من نماذج الاقتداء والمتابعة، وتحثّنا على اختيار الصّاحب الذي من شأنه الحرص على أن يقودنا إلى مرضاة الله في الدّنيا والآخرة، كما تبيّن لنا أثر التواضع وأهمّيته في هذه الحياة. وأمّا القصّة الثانية (قصّة ذي القرنين)، فتبيّن لنا نموذجًا للعبد الصّالح الذي آتاه الله ملكًا وعلمًا فسّخره في طاعة الله، وفي خدمة خلق الله، وإنقاذهم من الطغيان، وفي عمارة الكون بكلّ ما من شأنه إظهار الحقّ وإزهاق الباطل.

فهاتان القصتان نموذجان مضادّان لشخصية إبليس وذريته القائمة على التعالي والاستكبار والطغيان، والسّعي إلى إضلال النّاس وإغوائهم بنشر الرّذائل وتزيين الخبائث، والإغراء بالملذّات والشهوات. وكأنّ القرآن أراد أن يضعنا أمامَ صورتين متباينتين حتى يبصر العاقل الحقّ فيتّبعَه، ويعرفَ الباطل فيجتنبَه، ومن ابتغى غير هذا السبيل فمصيرُه مصيرُ المجرمين.

الفرع الرابع: علاقَةُ قصة موسى والخضر بالمقصد العام للسورة

أولاً: مُجْمَلُ القصّة إن خير من يحدثنا عن أحداث هذه القصة ما جاء في سنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد روى البخاري ومسلم" (صحيح مسلم حديث رقم (6313) وصحيح البخاري:كتاب بدء الوحي (حديث رقم 122) واللفظ له: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ. فَقَالَ كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ سَمِعْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ «قَامَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ أَنَا أَعْلَمُ. قَالَ فَعَتِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ قَالَ مُوسَى أَىْ رَبِّ كَيْفَ لِي بِهِ فَقِيلَ لَهُ احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ فَحَيْثُ تَفْقِدُ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ. فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ فَحَمَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ وَانْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ فَرَقَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَفَتَاهُ فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمِكْتَلِ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ. قَالَ: وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جِرْيَةَ الْمَاءِ حَتَّى كَانَ مِثْلَ الطَّاقِ فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يُخْبِرَهُ فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا. قَالَ: وَلَمْ يَنْصَبْ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ. {قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا}. قَالَ مُوسَى: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا}. قَالَ يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ فَرَأَى رَجُلاً مُسَجًّى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى. فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ أَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلاَمُ قَالَ أَنَا مُوسَى. قَالَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ نَعَمْ. قَالَ إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لاَ أَعْلَمُهُ وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ. قَالَ لَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا}. قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: {فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا}. قَالَ نَعَمْ. فَانْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمَاهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ فَقَالَ لَهُ مُوسَى قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا} ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذَا غُلاَمٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ. فَقَالَ مُوسَى {أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الأُولَى. {قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا

أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ}. يَقُولُ مَائِلٌ. قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَقَامَهُ. قَالَ لَهُ مُوسَى قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا {لَوْ شِئْتَ لَتَخِذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا». قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «كَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا». قَالَ «وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ ثُمَّ نَقَرَ فِي الْبَحْرِ. فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلاَّ مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ». قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَكَانَ يَقْرَأُ وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا. وَكَانَ يَقْرَأُ وَأَمَّا الْغُلاَمُ فَكَانَ كَافِرًا.

ثانياً: مناسبةُ القصة لما قبلها هناك عدة أوجه للمناسبة بين هذا المقطع وسابقه، ومن الأوجه التي ذكرها المفسرون ما هو وثيق الصلة بالمقطع ومنها ما هو غير واضح الارتباط، ومن وجوه الارتباط الواضحة ما يأتي (مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص255–256):

1. ذكر في المقطع السابق قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ}، وذكر في هذا المقطع لون من ألوان تصريف القول بأسلوب القصة والحوار، وفيه من عظيم الحِكَمِ والآداب والعظات والعبر الشيءُ الذي لا يحاط به.
2. ذكر في المقطع السابق قوله تعالى: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} وهو في سياق المؤاخذة على الإنسان الذي لا يستسلم لبراهين الحق وأدلة العقل، وظهور الحجة، وفي سياق قصة موسى والخضر عليهما السلام لون رفيع من ألوان التربية القرآنية وإلزام النفس الإنسانية حدودًا معينة في ترك الجدل ولو كان أمام واقعة ظاهرها الانحراف.
3. ذكر في المقطع السابق بعض وسائل المعرفة في قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا} وهو القلب؛ فبعد ذكر وسائل المعرفة في المقطع السابق، ذكر هنا أن هنالك علمًا لا يخضع لوسائل المعرفة المعهودة عند الناس، وإنما هو علم من لدن الله سبحانه وتعالى يقذفه في قلوب بعض عباده وأصفيائه، وإما إلهامًا أو وحيًا، {آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}.

ثالثاً: المقصدُ من القصة: ذهب الإمام الرازي إلى أن المقصد من سوق هذه القصة يتمثّل في أمرين: **الأول:** الرَّدُّ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ افْتَخَرُوا عَلَى فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْصَارِ، فَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ كَثْرَةِ عِلْمِهِ وَعَمَلِهِ وَعُلُوِّ مَنْصِبِهِ وَاسْتِجْمَاعِ مُوجِبَاتِ الشَّرَفِ التَّامِّ فِي حَقِّهِ ذَهَبَ إِلَى الْخَضِرِ لِطَلَبِ الْعِلْمِ وَتَوَاضَعَ لَهُ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّوَاضُعَ خَيْرٌ مِنَ التَّكَبُّرِ، **الثاني:** الردُّ على اليهود الذين قَالُوا لِكُفَّارِ مَكَّةَ: إِنْ أَخْبَرَكُمْ مُحَمَّدٌ عَنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ فَهُوَ نَبِيٌّ وَإِلَّا فَلَا، وَهَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ نَبِيًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْقِصَصِ وَالْوَقَائِعِ، كَمَا أَنَّ كَوْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيًّا صَادِقًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَمْ يَمْنَعْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِيَّاهُ بِأَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْخَضِرِ لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُ (الرازي، مفاتيح الغيب ج (21/ 477)، وينظر البقاعي، نظم الدرر (ج12/95–96). وذهب أبو الحسن الندوي إلى أن هذه القصة جاءت تثبت بصورة عملية واضحة أن وراء المكشوفات والمعلومات في هذه الحياة مجهولات كثيرة، وأن ما يجهله الإنسان في عصره أكثر مما يعلمه، وأن في الحياة ألغازًا كثيرة لم يستطع الإنسان حلّها. فقصة موسى والخضر تتحدّى التفكير المادي والفلسفات القائمة عليه التي تقرر أن الحياة هي ما فهمها الإنسان، وأن الكون هو ما أحاط به علما، وعليه فللإنسان حقّ إدارة العالم والتشريع فيه. فالقصة جاءت تنقض هذا الأساس وتهدم هذا البناء (أبو الحسن الندوي، الصراع بين المادية والإسلام (تأملات في سورة الكهف) ص93،98) ويرى الشيخ عبد الحميد طهماز أن مقصدها التحذير من فتنة العلم والاغترار به (طهماز، العواصم من الفتن في سورة الكهف، ص90).

رابعاً: علاقةُ القصّة بالمقصد العام للسّورة أمّا عن علاقة مقصد هذه القصة بالمقصد العام لسورة الكهف، فقد سبقَ البيانُ عند الحديث عن المقصد العام للسورة أنه العصمة من الفتن وسبل الاتّقاء منها، وعليه فقد جاءت قصة موسى والخضر عليهما السلام منسجمة مع مقصد السورة العام ومؤكّدة عليه. وبيان ذلك أن للقصة صلة وثيقة بالمقصد العامّ والأساسي لسورة الكهف وهو الاختبار والابتلاء، وسبيل العصمة من الفتن، وطرق النجاة منها. وفتنة العلم من الفتن الكبرى التي يتعرض لها أهل العلم من علماء ومتعلمين، وقد بيّن الله– عزّ وجل– في قصة موسى والخضر السبل المنجية من فتنة العلم ببيان الصفات الطيبة التي ينبغي أن يتصف بها العالم والمتعلم. وإن خطورة الفتنة بالعلم تتجلى لنا اليوم بما نراه ونشاهده من توظيف العلم في حب السيطرة والتعالي على الآخرين، هذا العلم الذي سبب بعدًا عن منهج الله فأفضى إلى الدمار والانحراف على المستويات كافة (طهماز، عبد الحميد، العواصم من الفتن في سورة الكهف، ص90–91).

الفرع الخامس: علاقة قصّة ذي القرنين بالمقصد العام للسورة

أولاً: مُجْمَلُ القصّة ومجمل ما جاء في القصّة ما يأتي:

سأل سائلون النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن ذي القرنين، فأوحى الله إليه بما هو وارد هنا من سيرته حيث ذكر من خبره أنّه مكّن له في الأرض، وأعطاه من أسباب كل شيء أراده من أغراضه ومقاصده في ملكه سببًا، طريقًا موصلًا إليه، من علم أو قدرة أو آلة، فأراد بلوغ المغرب فأتبع سببًا يوصله إليه، حتى إذا بلغ مكان مغرب الشمس قلنا يا ذا القرنين إما أن تقتلهم إن هم لم يدخلوا في الإقرار بتوحيد الله، ويذعنوا لك بما تدعوهم إليه من طاعة ربهم وإما أن تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم الرشاد، فقال: أما من ظلم نفسه ولم يقبل دعوتي وأصر على ما كان عليه من الشرك فسوف نعذبه بالقتل ثم يرد إلى ربه في الآخرة فيعذبه فيها عذابا نكرًا، وأما من آمن بموجب دعوتي وعمل عملا صالحا، فله في الدارين المثوبة الحسنى وسنقول له مما نأمر به يسرًا، ثم سلك الطرق المؤدية إلى مقصده، حتّى إذا بلغ جهة المشرق من سلطانه ومملكته، وجد الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترًا، وقد أحطنا بما لديه علمًا أي نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شيء وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، ثم سار طرقًا ومنازل، حتّى إذا بلغ بين الجبلين الذين سد ما بينهما وجد من ورائهما مجاوزًا عنهما أمة من الناس لا يكادون يفقهون قولًا لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم، فسألوا ذا القرنين أن يقيهم من فساد يأجوج ومأجوج، فقال ذو القرنين إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، ولكن ساعدوني بقوة أي بعملكم وآلات البناء أجعل بينكم وبينهم ردمًا، فما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الردم الذي جعله ذو القرنين حاجزًا بينهم وبين من دونهم من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس؛ فقال ذو القرنين هذا رحمة من ربي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلًا يمنعهم من العيث في الأرض والفساد، فإذا اقترب الوعد الحق جعله دكًّا أي ساواه بالأرض، وكان وعد ربي حقًّا أي كائنًا لا محالة (الطبري، جامع البيان 18/97-117. الزمخشري، الكشاف 2/743. ابن عطية، المحرر الوجيز 3/540).

ثانياً: علاقةُ القصة بما قبلها جاءت هذه القصّة بعد قصّة موسى عليه السلام وطلبه للعلم مع الخضر، فلمّا "فرغ من هذه القصة التي حاصلها أنها طواف في الأرض لطلب العلم، عقبها بقصة من طاف الأرض لطلب الجهاد، وقدّم الأولى إشارة إلى علو درجة العلم لأنّه أساس كلّ سعادة، وقوام كلّ أمر، فقال عاطفًا على وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ) (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ) الرجل الصالح المجاهد (ذِي الْقَرْنَيْنِ)" (البقاعي، نظم الدرر، ج12، ص128).

ثالثاً: المقصدُ من القصة جاءت هذه القصّة لتبيّن بعضًا من أخبار ذي القرنين الذّي مكّن الله له في الأرض وأجرى العدل والصّلاح على يديه فطاف الأرض من مشرقها إلى مغربها سعيًا منه إلى إقامة منهج الله السويّ بإيمان قويّ ويقين صادق بتوفيق الله له في مسعاه "فالقصة قصّة الملك العادل والخلافة الصالحة في الأرض قصة الايمان والقوة إذا اجتمعتا فإنهما لا بد وأن يتمخضا عن عمل صالح يعمر الأرض وينشر فيها الخير ويبيد كل أسباب الشر، وهكذا كان هذا الملك الصالح حيث جمع الله له من أسباب العزّ والتمكين ما يسّر الله له تطوافه وسعيه في أقصى الأرض مشرقها ومغربها وألهمه ذلك المنهج الصالح للحكم بين الناس، فالقصة في مجملها يدور موضوعها حول السعي في الأرض بالعمل الصالح وفق دستور محكم ومنهج قويم" (زكية محمد، التشابك القصصي في سورة الكهف، ص128) وذلك باتّخاذ الأسباب والوقوف عليها، "فإنّ اتخاذ الأسباب للوصول إلى الغايات لون من ألوان التمكين الرباني لعباده ولا يتنافى ذلك مع توكل العبيد على الله سبحانه وتعالى وطلبهم العون والتوفيق والسداد" (مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص324)، فالسّير وفق منهج الله يقتضي الأخذ بالأسباب، والسّعي إلى نشر العدل والصّلاح، كل من منصبه الذّي هو فيه كما كان من ذي القرنين الذّي أعطى مثلًا في الملك الصّالح الطيّب الذي سخّر ملكه لنشر الخير والعدل والصّلاح.

رابعاً: علاقةُ القصّة بالمقصد العام للسّورة كانت قصّة ذي القرنين مثلًا يُحتذى به في الملك والسلطان والخلافة الصّالحة، وبسط العدل في الأرض باتّخاذ الأسباب والتوكّل على الله؛ ولأحداث هذه القصّة صلة وثيقة بالمقصد العام للسّورة، فالملك والسّلطان عبر التّاريخ كثيرًا ما ارتبط بالظّلم والفساد كما قالت ملكة بلقيس (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) [النمل: 34] ولكن الله تعالى في هذه القصّة يبرز لنا مثلًا للملك الصّالح السّاعي لنشر الخير والصّلاح، فمرتبة الملك والسّلطة في المجتمع لا يصل إليها كلّ البشر، وهي بلا شكّ مرتبة من الابتلاء حيث يبتلي الله بها عباده، لينظر كيف يعملون، فقد أمدّ الله عزّ وجلّ ذو القرنين بالسّلطة وآتاه من كلّ شيء سببًا فاتّبع تلك الأسباب الموصلة إلى المقصود، واستعملها في سبيل نشر الحقّ وخدمة الخلق وإرشادهم إلى سواء السّبيل حتّى تحقّقت على يديه تلك الإنجازات وكان له من قوّة الإيمان واليقين بالله أن ينسبها إلى مولاه الحقّ، فقال: (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) [الكهف: 98] فهذه "كلمة حقّ أعلنها، أثبت فيها الفضل للكريم المتفضل عليه ورد الأمر كله إلى مالكه والمتصرف فيه فهذه رحمة من الله يرحم بها الناس

ويمنع عنهم الفساد ولكن إلى حين، لأنه من سنة الله في الكون أن لا يدوم شيء على حاله تلك الحقيقة التي أثبتها المولى تبارك وتعالى في بداية السورة قائلًا: (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا) [الكهف: 8] حين يحين أمر الله وهي الحقيقة ذاتها التي ختمت بها قصص السورة (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) [الكهف: 98]" (زكية محمد، التشابك القصصي في سورة الكهف، ص124-125).

الخاتمة

في ختامِ هذه الدراسة نوجِزُ أهمَّ النتائجِ التي توصَّلْنا إليها، وهي على النحو الآتي:

1. أظهرت الدّراسة وجود علاقة وطيدة بين القصّة القرآنيّة وبين السّورة التّي وردت فيها، من الناحية المقاصديّة.
2. أكّدت الدّراسة أنّ لكلّ سورة مقصدًا عامًّا، تنتظم فيه جميع أجزاء السّورة وترجع إليه.
3. أكّدت الدّراسة أنّ القصّة القرآنيّة لم ترد في سور القرآن الكريم إلاّ لخدمة مقصد من مقاصد السّورة ولم تكن أبدا من قبيل التّسلية، وسرد الحوادث.
4. أظهرت الدّراسة أهميّة الوقوف على مقاصد السور، وأنَّ معرفتَها سبيل إلى بيان معاني القرآن.
5. بيّنت الدراسة أن لكل قصة من قصص سورة الكهف مقصدًا خاصًّا، وغرضًا مُحَدَّدًا، وأنَّ هذا المقصد جاء منسجمًا تمامًا مع مقصد السورة العامِّ، ومؤكدًا له.

المصادر والمراجع

ابن تيمية، (1995م) مجموع الفتاوى، تح عبد الرحمن محمد قاسم، مجمع الملك فهد.

ابن حجر، (1379هـ) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت: لبنان.

ابن حنبل، أحمد، (1999م) المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط:2، مؤسسة الرسالة.

ابن دريد، (1987م) جمهرة اللغة، رمزي بعلبكي، ط:1، دار العلم للملايين، بيروت.

ابن عاشور، (1984م) التحرير والتنوير، ط: 1، الدار التونسية للنشر: تونس.

ابن عطية، (1422هـ) المحرر الوجيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي،- ط:1، دار الكتب العلمية.

ابن فارس، (1979م) معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر.

ابن منظور (1414هـ)، لسان العرب، ط:3، دار صادر: بيروت.

أبو داود، (2009م) سنن أبي داود، تح: شعيب الأرنؤوط، ط:1 دار الرسالة.

أبو زهرة، محمد، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة.

باحاذق، عمر، (1993) الجانب الفني في قصص القرآن الكريم، ط:1، دار المأمون.

الباقلاني، (1991م) إعجاز القرآن، تعليق: محمد خفاجي، ط:1، دار الجيل، بيروت.

البخاري، (1422هـ) صحيح البخاري، تحقيق: محمد الناصر، دار طوق النجاة.

بدوي، أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، ط:1، دار النهضة: مصر- د.ت.

البقاعي، (1987م) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تح: عبد السميع حسنين، دار المعارف، الرياض: السعودية.

البقاعي، (1995) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب، القاهرة – مصر.

بلبول، عبده إبراهيم محمد، القصص القرآني، رسالة دكتوراه في التفسير، جامعة الأزهر الشريف: القاهرة مصر، ط: د ت ط.

البيهقي، (2003م) السنن الكبرى، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية.

البيهقي، (2003م) شعب الإيمان، تح: عبد العلي حامد، وزميله، ط:1، مكتبة الرشد، ط:1.

الترمذي، (-1975م) سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، ط:2، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.

الخطيب، عبد الكريم، (1975م) القصص القرآني في منطوقِه ومفهومِه، ط:2، دار المعرفة.

الخليل، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

دراز محمد عبد الله، (2005م) النبأ العظيم، دار القلم للنشر والتوزيع.

دراز، محمد عبد الله، مدخل إلى القرآن الكريم، دار المعرفة الجامعية: اسكندرية.

الدغامين زياد، (1995م) منهجية البحث في التفسير الموضوعي، دار البشير، عمان.

الدقور، سليمان، (2005م) اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، رسالة دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، جامعة اليرموك، اربد: الأردن.

الرازي، (1420هـ) مفاتيح الغيب، ط:3، دار إحياء التراث العربي: بيروت.

الربيعة، محمد، (2011م) علم مقاصد السور، مكتبة الملك فهد

الوطنية: السعودية.
رشيد، محمد رضا، (1990م) تفسير المنار، الهيئة المصرية للكتاب.
الزحيلي، وهبة، (1418هـ) التفسير المنير، ط:2، دار الفكر المعاصر: دمشق.
الزُّرْقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط:3 مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
زكية، محمد خالد أحمد، (2008م) التشابك القصصي في سورة الكهف، كلية الدراسات الاسلامية والعربية دبي: الإمارات.
الزمخشري، (1998) أساس البلاغة، تح: محمد عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت.
الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو (1407هـ) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي: بيروت.
السباعي، مريم، (1404هـ) القصة في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه.
السيوطي، (1974م) الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
الشاطبي، (1975م) الموافقات، تحقيق: عبد الله دراز، ط:2، دار المعرفة بيروت.
الشرقاوي، أحمد بن محمد، (2007م) التفسير الموضوعي لسورة الكهف.
الشعراوي محمد متولي، تفسير الشعراوي، الخواطر- مطابع أخبار اليوم، ط: د ت ط.
الشعراوي، محمد متولي، سورة الكهف، دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة، القاهرة.
شلتوت محمود، (2004م) تفسير القرآن الكريم، ط12، دار الشروق، القاهرة.
الصنعاني، المصنف، (1403هـ) حبيب الرحمن الأعظمي، ط:2، المجلس العلمي، الهند.
الطبري، (2000م) جامع البيان، تحقيق: أحمد شاكر، ط:1، مؤسسة الرسالة.
طنطاوي، محمد سيد (1998م)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ط1، دار نهضة مصر، القاهرة.
الظواهري كاظم، (1991م) بدائع الإضمار القصصي في القرآن، ط1.
عباس، فضل حسن، (2007م) قصص القرآن الكريم، ط:2، دار النفائس: الأردن.
العدوي، محمد، (1988م). معالم القصة في القرآن،- ط:1 دار العدوي، عمان: الأردن.
عوضين، إبراهيم، (1990م) البيان القصصي في القرآن ط، 2، دار الأصالة، الرياض.
الغرناطي، ابن الزبير، (1990م) البرهان في تناسب سور القرآن، تحقيق: محمد شعباني.
فتحي أحمد عامر (1974)، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، دار النهضة، القاهرة.
الفراهي، عبد الحميد (ت: 1388هـ)، دلائل النظام، ط: 1، المطبعة الحميدية.
الفيروزآبادي، (2005) القاموس المحيط، تحقيق: مؤسسة الرسالة، ط:8، بيروت، لبنان.
قطب، سيد، (1412هـ) في ظلال القرآن، ط: 17، دار الشروق- القاهرة- مصر.
قطب، سيّد، التّصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة- مصر.
قطب، محمد (2001)، القصة في القرآن، دار قباء للطباعة والنشر.
الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة.
المراغي، أحمد (1946م)، تفسير المراغي، ط:1، مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر.
المزيني، خالد (2006م)، المحرر في أسباب نزول القرآن، ط:1، دار ابن الجوزي.
مسلم، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.
مصطفى مسلم (2005م)، مباحث في التفسير الموضوعي، ط:4، دار القلم، دمشق.
مصطفى مسلم ومجموعة من الباحثين (2001م)، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ط1، الامارات: جامعة الشارقة.
المطَرِّزِيّ، المُغرب في ترتيب المعرب، دار الكتاب العربي.
المطعني، عبد العظيم (1992م)، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ط1، مكتبة وهبه.
الندوي، أبو الحسن (2004م)، المدخل إلى الدراسات القرآنية وتأملات في سورة الكهف، ط:1 مؤسسة الرسالة بيروت: لبنان.

Stories in Qur'anic Chapter (Surat of the Nobel Quran) and its Relation with General Purpos (Alkahf Surat as an Example)

*Mohammad R. Alhawari. Mansour M. Abuzaina**

ABSTRACT

This study aimed at discovering the relationship between the story and the general meaning derived from the content of the Qur'anic chapter; together with its importance in interweaving the fragments of the chapter as a whole, taking into account the fact that every Qur'anic chapter has unique independent character,which differentiates it from other chapters. Accordingly, it tackled a discussion on understanding the Qur'anic story as well as its important objectives, characteristics and overall meaning of the chapter in entirety, explaining the methods used in deriving it. And then, it resumed the practical parts for the existent stories in the Qur'anic Chapter of the Caveclarifying them one by one and intertwining between the specific meaning of each story to the general meaning implied to the chapter as one. This study concluded that each story brought into any Qur'anic chapter is to fulfill its purposeful function that gets along well with its general meaning as a single chapter. Plus, the fact that every Qur'anic chapter is distinctly characterized from chapters other than it; and at the same time, each chapter has an overall representation that all discrete meanings found in the chapter resonate its primary meaning.

Keywords: Purposes of the verses of the Qur'an, Quran stories, Suitable verses, cave Sora.

* Faculty of Sharia, Yarmouk University, Jordan. Received on 29/12/2015 and Accepted for Publication on 2/2/2016.